المحاضرة الخامسة سوسيولوجيا النص :

د: رويدي عدلان

تمهيد:

يعدّ المنهج التاريخي نقطة تحول في مسار النظرية النقدية الحديثة، بحكم انتقاله من فكرة المذهب إلى فكرة المنهج في معالجة الظواهر الأدبية والفنية، لذلك شهد انتشارا واسعا في فرنسا وفي مجال البحث المقارن خصوصا، وقد عرف هذا المنهج تحولات عديدة، وارتدى أزياء عديدة، مع انتشار الوعي الاجتماعي لدى الطبقات المتوسطة والضعيفة من المجتمع، وهذا ما أدّى إلى ظهور النقد الاجتماعي الذي عرف رواجا واسعا في أوروبا، خصوصا مع انتشار التيار الماركسي وأفكار نظرية الانعكاس، التي عزّزت هذا التوجه الاجتماعي في دراسة الأدب، حيث يتم ربط الظواهر الأدبية بمعطيات المجتمع وتحوّلاته الجوهرية، التي تأثر حتما على مستوى الوعي، وقد ساير المنهج الاجتماعي التطورات التي عرفها علم اللغة، فحاول تشكيل مقاربات تمزج بين المعطى اللغوي والمعطى الاجتماعي، فتجلى ذلك من خلال البنيوية التكوينية مع لوسيان غولدمان، ثم سرعان ما شهد هذا المنهج بروز اتجاه جديد، وهو منهج سوسيولوجيا النص، الذي فرض وجوده في الساحة النقدية.

1المرجعية اللسانية والفلسفية لمنهج سوسيولوجيا النص الأدبي- :

إنّ الحفر في المرجعيات المعرفية والفلسفية لهذا المنهج، يقتضي أولا معرفة المرجعيات التي شكّلت فكر بيير زيما مؤسس هذا المنهج، وهذا من خلال الكتب والمدونات التي ألفها هذا الناقد، وهذه المرجعيات متعددة ومتنوعة، فالقارئ المتصفّح لكتابه" النقد الاجتماعي "يلمس حضور مواضيع متعددة " تتضمن الفلسفة، وعلم الاجتماع والنقد الأدبي، وعلم اجتماع » ، حضور مواضيع متعددة الثقافة، والسيميائية والحداثة وما بعد الحداثة، والمدارس النقدية الأدبية متوقفا عند إنجازات «الشكلانيين الروس، ومدرسة فرانكفورت في ممثلها الأساسي تيودور أودرنو [1] ، والى جانب هذه المعارف نلمس حضورا كبيرا لأفكار جورج لوكاتش وكانط وهيغل وماركس، كما

[1] بيار.ف.زيما :النص والمجتمع :آفاق علم اجتماع النقد، تر:أنطوان أبو زيد، مراجعة :موريس أبو ناضر، كتب وقراءات، إشراف : فيصل دراج، مجلة المستقبل العربي، مركز أبحاث الدراسات العربية، بيروت، ع155 1992ص144

أفاد من أعمال لوسيان غولدمان وباختين وأدورنو، ويضيف إلى هذه الجهود مساهمات" مدرسة كونستنس "الألمانية التي ربطت بين العمل الأدبي وأشكال قراءاته المختلفة[2] إضافة إلى اطلاعه الواسع على اللسانيات البنيوية والنصية ومعرفته العميقة بطبيعة هذه المناهج، فكل هذه التراكمات المعرفية المتنوعة تغذى منها منهج سوسيولوجيا النص محاولا الجمع بين ماهو نسقي ولغوي داخل النص، وبين ما هو سياقي واجتماعي، ليشكل مقاربة متميزة تحاول الكشف عن مختلف الصراعات الاجتماعية والنزاعات الإيديولوجية داخل النصوص الأدبية.

2 -نشأة منهج سوسيولوجيا النص الأدبي- :

تبلورت معالم هذا المنهج مع بيير زيما، الذي حاول الاستفادة من الأبحاث اللسانية المعاصرة، ساعيا إلى بناء سوسيولوجيا تخص النص الأدبي بعينه، ويمثل هذا المنهج الحلقة الأخيرة في سوسيولوجيا الأدب التي أفادت من تطور المناهج النقدية المحدثة، البنيوية، والسيميولوجية والنصية[3] ، وهذا من خلال إعطاء أهمية كبيرة للبنية واللغوية والرمزية للنص، محاولا تخليصه من النظرة الإيديولوجية الأحادية، ومن مفهوم الانعكاس بوجهيه الآلي والجدلي، ومن أجل تجاوز النظرة الماركسية هاته ينبغي الاهتمام بمجال الرسالة نفسها في جانبها الشكلي، الذي يخص الوحدات المعجمية والتركيبية ثمّ الجانب المضموني الذي يخص محتوى الرسالة نفسها، والمتجسد داخل هذه الوحدات اللغوية، فينطلق بذلك من النص الأدبي إلى السياق الاجتماعي، معتمدا في مقاربته على مفهومين أساسيين هما:

2 1اللهجة الاجتماعية- - :

وهي لغة إيديولوجية ناظمة على المستويات المعجمية والدلالية والتركيبية لصالح جماعة معينة، ووفق هذا فإنّ النزاعات الاجتماعية والإيديولوجية تتخذ طابعا لغويا، فكل الفلسفات والأفكار والنظريات ترتدي ثوبا لغويا ينبغي

[2] المرجع نفسه :ص145 -146

[3] صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر، ص62

تفكيكه للوصول إلى هذا المبتغى، وهكذا تنفتح اللغة على التاريخ وتحمل بعدا تاريخيا.

2 2الوضعية اللسانية الاجتماعية- - :

وهي الحالة الاجتماعية للغة كما عاشها المؤلف المعني بالأمر، والكتّاب الذين عرفهم أو ساندهم، وهي بذلك تكون نوعا من الإطار الاجتماعي التاريخي، منظما للفعاليات اللغوية على صعيد النص، حيث تساعد على توفير الجوّ المناسب للدراسة ، وبالتالي فإنّ تجسيد المصالح الاجتماعية والجماعية يمكن تقديمه بشكل أوضح وأكثر تنظيما في مجال الدلالة ممّا في مجال المفردات اللغوية[4] حيث يتم تناول اللغة الجماعية في إطار دلالي، حيث تتم عملية تفكيك سننها، ممّا يساعد على الوصول إلى باطن الخطابات وأبعادها الاجتماعية والإيديولوجية، وقد استند بيير زيما في مقاربته هاته لأعمال ميخائييل باختين خصوصا في نظريته المتعلقة بالملفوظ ومفهومه للعلامة(علامة إيديولوجية)، وكان الهمّ الأكبر لبيير زيما هو الإجابة على هذه الإشكالية :كيفية يستجيب النص الأدبي للإشكالات الاجتماعية والتاريخية على المستوى اللغوي[5] ، وقد استعان بيير زيما في عرض رؤيته الخاصة لسوسيولوجيا النص انطلاقا من مثال مأخوذ عن روايتي" الغريب " لألبير كامو و"المسافر"لألان روب غرييه ومارسيل بروست، إنّ الأمر يتعلق بتمثيل مختلف مستويات النص كبنى لغوية واجتماعية في نفس الوقت وباستعادة بعض المفاهيم السيميائية الموجودة عن طريق استخدام أبعادها السوسيولوجية[6] ، فعلى هذه الإشكالية شكّل مشروعه النقدي، حيث اتخذ من اللغة مجال البحث النقدي في علم اجتماع النص الأدبي، حيث تمثل الجسر الرابط بين الأدب والفن من جهة، والحياة بصفة عامة من جهة أخرى ، وله كتاب" النقد الاجتماعي" استطاع من خلاله أن يبلور الاتجاهات التي سبقته، ويعرض أهم الصعوبات والانتقادات التي وجهت إليها، ويقترح تصو ا ر

[4] بيير زيما :النقد الاجتماعي، تر :عايدة لطفي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 1991ص177

[5] عمار بلحسن :نحو سوسيولوجيا للنص الأدبي بيير.ف.زيما مجلة التبيين، الجاحظية ، ع5 1989 ص79

[6] بنظر جان إيف ناديه :النقد الأدبي في القرن العشرين، تر :قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ط – 1993 ص250-251

أكثر نضجا وتطورا في سوسيولوجيا الأدب [7]، يكون النص فيه هو المنطلق وصولا إلى السياق الاجتماعي.

3منهج سوسيولوجيا النص الأدبي في النقد العربي المعاصر- :

على الرغم من حداثة هذا الاتجاه في النقد الأدبي المعاصر، إلاّ أنّ النقاد العرب أخذوه بعين الاعتبار ووجدوا فيه ما يعينهم على دراسة النصوص الأدبية من وجهة نظر اجتماعية خاصة وأنه لا يقف على البنية اللغوية فقط، وانما يفتحها على السياقات الاجتماعية، ومن هذا المنظور تلقّف النقاد العرب هذا المنهج، خصوصا في البيئة المغربية، التي هيّأت الظروف الازمة لبروز هذا المنهج وشيوعه في الأوساط النقدية والأكاديمية، ومن ضمن النقاد الذين استثمروا هذا المنهج في مقاربتهم للنصوص الأدبية نجد الناقد سعيد يقطين في كتابه" انفتاح النص الروائي النص والسياق [8]"، حيث يعلن صراحة بكونه يطمح في هذه الدراسة إلى تحليل النص الروائي العربي باعتباره بنية دلالية، وهي بذلك تستفيد من أهم إنجازات نظرية النص وسوسيولوجيا النص الأدبي، لتحاول البحث عن دلالات النص الروائي العربي انطلاقا من بنيته الداخلية، فسعيد يقطين يهتمّ بمجال الرسالة في شقيها الشكلي والمضموني، هذا الثاني(في بنيته الاجتماعية والفكرية)ترصد ملامحه المرجعية من خلال النص الأدبي[9] وقد توصل سعيد يقطين من خلال دراسته إلى الكشف عن البنى الاجتماعية ومفعولها داخل النصوص الروائية المدروسة، وهي نصوص روائية مغربية.

ونظرا لحداثة هذا المنهج مقارنة بالمناهج السابقة، فإنه ما زال محل اشتغال من قبل الباحثين والدارسين في حقل الأدب، خصوصا على مستوى الدراسات الأكاديمية في الجامعات العربية، في طور الليسانس والماجستير والدكتوراه، أو في الدراسات النقدية المتخصصة سواء في بيئة المشرق العربي أو مغربه.

---

[7] صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر، ص62

[8] ينظر سعيد يقطين :انفتاح النص الروائي النص والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء،ط1 1989 ص12

[9] عبد العزيز جسوس :إشكالية الخطاب العلمي في النقد العربي المعاصر، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش ، ط2007 ص141